

فن ترويض المصوم

دليل العاقل لإدارة أعباء الحياة

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان



في لحظات الضيق والشدة، حين تثقل الهموم كاهل الإنسان وتضيق عليه الأرض بما رحبت، وتكون الحياة كالليل الحالك لا يرى فيه نجم، يأتي النداء الرباني كشعاع نور يخترق الظلمات، ليضع بلسماً على الجراح ويصنع نوراً في طريق الظلام:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) (الشرح، 5-6)

فهذا الوعد الإلهي ليس مجرد كلمات تتلى في المحاريب، إنما هو منهج حياة وفلسفة وجود تحمل في طبيعتها أعماق معاني الأمل والثقة بالله، وقانون كوني يحكم مسيرة الحياة والأحياء. ففي قديم الزمان، كان إبراهيم بن أدهم - ذلك العارف بالله الذي ترك عرش الملك طلباً لعرش القلب في محراب العبودية - يسير في طريقه، فأبصر رجلاً جالساً منكس الرأس، وجهه عابس، وعيناه تحكيان قصة الألم والحزن، فقد كان الرجل غارقاً في بحر من الهموم، محاطاً بسحب قاتمة من القلق والخوف، فاقترب منه الحكيم بقلب رحيم وابتسامة دافئة، وسأله ثلاثة أسئلة بسيطة في ظاهرها، إلا أنها تحمل في جوهرها خلاصة الحكمة الإنسانية:

"أخرج شيء عن ملك الله؟" أجاب الرجل وهو يرفع رأسه: "لا"

"أينقص من رزقك شيء كتبه الله لك؟" أجاب وقد بدأ نور الفهم يتسلل إلى عينيه: "لا"

"أينقص من أجلك لحظة كتبها الله لك؟" أجاب وقد استقام ظهره: "لا"

فتبسم إبراهيم بن أدهم تبسم الحكيم الذي يرى الحقيقة واضحة جلية، وقال: "فعلام الهم إذن؟ كل شيء بيد الله: الرزق والأجل والقدر."

وفي هذه الكلمات البسيطة، خلاصة مدرسة كاملة في فن العيش، ومنهج متكامل في إدارة الهموم والمخاوف، فهي دعوة للخروج من سجن القلق الضيق إلى فضاء التوكل الرحب حيث يعيش الإنسان حراً من أسر الخوف على المستقبل.

ففي ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح، 6) وعد رباني، لا مجرد تسلية مؤقتة أو كلمة عابرة تُقال للمتألمين، إنما هو قانون كوني ثابت وضعه الله في نظام الحياة، كقانون الجاذبية أو دورة الفصول، لأنه الحقيقة التي تتجلى في كل تفاصيل الوجود، من دورة الليل والنهار إلى تعاقب الفصول، ومن نزول المطر بعد الجفاف إلى إشراق الشمس بعد الظلام.

فهذا الوعد مؤكد بالقسم الإلهي، مكرّر ليؤكد حتميته وثباته، فقد جاء بصيغة "مع" وليس "بعد" ليخبرنا حقيقة مذهلة مقتضاها أن اليسر مصاحب للعسر، متداخل معه، وبذور الفرج مزروعة في قلب المحنة ذاتها، فالمرأة تتألم في المخاض، لكنها مع ألمها تحمل في أحشائها حياة جديدة، والطالب يسهر ويتعب في الدراسة، لكنه مع تعب يبنى مستقبله، والمريض يتجرع مرارة الدواء، لكنه معها يتجرع الشفاء.

وفي إعجاز لغوي يأخذ بالألباب ويهز أعماق النفس، نجد أن كلمة "عسر" ومشتقاتها ذكرت في القرآن الكريم 12 مرة فقط، بينما ذكرت كلمة "يسر" 36 مرة، (موسوعة الأعداد في القرآن الكريم، مهدي سعيد كريزم)، وهذا يعني أن اليسر يفوق العسر بثلاثة أضعاف في الذكر القرآني، وهو ما يعكس حقيقة كونية عميقة ونبوءة ربانية مؤكدة، وهذه النسبة ليست مصادفة رقمية، إنما هي رسالة ربانية واضحة وضوح الشمس، فمهما طالت فترات العسر، ومهما اشتدت المحن، ومهما ضاقت السبل، فإن اليسر أكثر وأغلب وأدوم، وأن الله - في رحمته التي وسعت كل شيء - جعل الصعوبات استثناءات مؤقتة، بينما جعل التيسير هو القاعدة والأصل، فهذا الإعجاز العددي يحمل بشارة عظيمة لكل مهموم ومحزون، فالضيق الذي نعيشه الآن ليس إلا جزءاً صغيراً من مسيرة حياتنا، وأن الفسحة والراحة تنتظرنا في أضعاف هذا الضيق، فإن عشنا يوماً صعباً، فإن ثلاثة أيام سهلة في انتظارنا، وإذا مررت بأزمة، فإن ثلاث فرص للانفراج تقترب منا بخطى حثيثة.

ومن زاوية أخرى ففي سورة الكهف، يحكي لنا القرآن قصة عجيبة تكشف لنا أعماق الحكمة الإلهية وراء الأحداث التي قد تبدو مؤلمة أو غامضة، فقد لقي موسى عليه السلام عبداً من عباد الله آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً، وقد طلب موسى منه أن يتبعه ليتعلم منه، فوافق الخضر بشرط ألا يسأله عن شيء حتى يحدثه هو عنه، وانطلقا معاً في رحلة ستكشف عن أعماق أسرار القدر والحكمة الإلهية.

وتتوالى الأحداث التي لا يستطيع سيدنا موسى عليها صبرا وفهماً، فمن خرق السفينة التي حملتهما، إلى قتل الغلام الذي بدا بريئاً، إلى إقامة الجدار في القرية التي رفض أهلها إطعامهما، مما يضطره للسؤال دوماً عن الدافع وراء كل هذا، ويأتي نتيجة ذلك الفراق بينهما والرد على ما لم يطق عليه صبراً، فكان في خرق السفينة حماية من ملك ظالم يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، وفي قتل الغلام حماية لوالديه المؤمنين من طغيانه وكفره المستقبلي، وفي إقامة الجدار حماية كنز يتيمين صالحين حتى يبلغا رشدهما. ففي هذه القصة يظهر درس عظيم في فهم طبيعة القدر والمحن التي تصيبنا، فكثيراً ما نستنكر أحداثاً قد تبدو لنا مؤلمة أو غير مفهومة، لكننا لا ندرك الحكمة الخفية وراءها، فقد يكون المرض الذي أصابنا حماية من كارثة أكبر، وقد يكون الفشل الذي مررنا به دفعاً لنا نحو مسار أفضل، وقد يكون الفراق المؤلم إنقاذاً من علاقة مدمرة.

وهنا نكتشف معنى عميقاً لآية كريمة: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 216)، فقد يكون العسر نفسه يسراً لو اطلعنا على الغيب ورأينا الصورة كاملة، فكم من مرض يجنبك حادثة مميتة كانت ستقع لك في طريقك إلى العمل، وكم من فشل في وظيفة يدفعك لمسار مهني أنفع وأكثر إشباعاً لروحك، وكم من خسارة مالية تفتح لك باب رزق لا تتوقعه من جهة لم تخطر على بالك، وكم من فراق حبيب يحميك من علاقة كانت ستدمر حياتك، وكم من تأخير في الزواج يحفظك للشريك المناسب الذي سيسعدك حقاً، وهناك الكثير من تلك الأمثلة التي مما من شأنها أن تشفى لنا عن نظرتنا المحدودة للأحداث، فالأمر كوقوفنا أمام لوحة فسيفسائية عملاقة لا نرى منها سوى قطعة صغيرة ملوثة ونحكم عليها من خلالها، في الوقت الذي يرى الله فيه الصورة كاملة، ويدبر الأمور بحكمة تفوق فهمنا وإدراكنا.

لذلك ففي أحلك لحظات الحياة، وحين تسدّ الطرق وتتضاءل الحلول، ويشعر الإنسان أنّه قد وصل إلى نهاية المطاف وأنّه لا أمل في التغيير، يأتي هذا النداء الرباني ليفتح نافذة أمل في جدار اليأس المتين : ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾، (الطلاق: 1)، ففي هذه الآية فلسفة عميقة في إدارة التوقعات وتعطيل آلة اليأس التي تطحن القلوب وتسحق الأرواح. فإنّ عند الله حكمة بالغة في عدم إطلاعنا على تفاصيل المستقبل، وهذا رحمة منه ونعمة عظيمة، فلو علمنا متى سيأتي الفرج لفقدنا حلاوة المفاجأة وعذوبة الانتظار، ولو علمنا كيف سيحدث لضاقت تصوراتنا عن قدرة الله اللامحدودة وإبداعه في التدبير، ففي الغيب رحمة، وفي المجهول نعمة، وفي كل لحظة قادمة احتمال لتغيير جذري لا نتوقعه ولا نحسب له حساباً، فكم من أزمة انقلبت نعمة، وكم من محنة صارت منحة، وكم من باب أغلق ليفتح الله أبواباً لم تخطر على بال.

وفي المقابل نجد أناساً يرون في الهمّ الذي يحيط بهم ويرافقهم عدواً وجبت محاربته، رغم أنّ حقيقة الهمّ ليست عداوة، إنّما هو جزء من التجربة الإنسانية ويحتاج إلى إدارة حكيمة تبدأ بفهم طبيعته وحدوده، وتنتهي بتحويله من طاقة مدمرة إلى وقود للتغيير الإيجابي، فهو ليس فشلاً شخصياً أو عقاباً إلهياً، إنّما هو امتحان يصنع الرجال ويصقل النفوس كما تصقل النار الذهب، وما محاولة إنكار الهمّ أو كبته إلا زيادة له ولتأثيره بقوة وضراوة، أمّا قبوله والتعامل معه بحكمة فيُضعف سطوته ويحدّ من تأثيره المدمر، فقد قال عروة بن الزبير عندما قطعت رجله ومات ولده في ليلة واحدة: "اللهم لك الحمد، إنّ كنت أخذت فلقد أعطيت، ولئن كنت ابتليت فلقد عافيت"، وهنا جوهر التسليم لله في أمور لا سيطرة لنا فيها كالقضاء والقدر والأجل والرزق، فكلّها أمور لا نملك فيه حولاً ولا قوة، ولكن بأيدينا نحن أن نجعل من الهمّ والابتلاء دافعاً أو مدمراً، فالهمّ إنّ كان بناءً دفع إلى الحركة والعمل والبذل، أمّا لو كان مدمراً أفشل الإرادة وجمد الطاقات، لذلك فعلينا أن نسأل أنفسنا السؤال الصحيح: "ما الذي يمكنني فعله الآن لتحسين وضعي؟" عوض السؤال المدمر: "لماذا يحدث لي هذا؟" أو "متى سينتهي هذا الابتلاء؟"

ففي كلِّ همٍّ ننتظر انتهاءه دروس وحكم، وفي كلِّ محنة هناك منحة ونعمة، فقد يكون الهمُّ تطهيراً للنفس من الذنوب، أو تقوية للإيمان والصلة بالله، أو إعداداً لمرحلة جديدة من الحياة تتطلب قوة ونضجاً أكبر مما نحن عليه الآن.

ختاماً،

فالعسر ليس عقاباً بل مدرسة إلهية راقية تُخرج الإنسان من سجن "الأنا" الضيق إلى فضاء التوحيد الرحب، فهي تعلّمنا أن الفرَج يأتي من حيث لا نحسب، وأن الله قريب حين تضيق بك السبل وتسد الطرق، كما يقول أهل المعرفة: "لا يزول العسر حتى يستوعب القلب، فإذا امتلأ به انفجر باليسر"، وهذا المعنى العميق يكشف لنا سرَّ التربية الإلهية، فالله يدعنا نصل إلى نقطة اليأس الظاهري، حتى نتعلم ألا ملجأ إلا إليه، وألا قوة في الكون إلا قوته، وألا فرج إلا من عنده، فعندما يمتلئ القلب بالعسر ويستوعبه تماماً، فعندها ينفجر اليسر كالينبوع العذب، فيغسل كلَّ ألم ويطهر كلَّ حزن.

فلو كانت الحياة يسراً دائماً لفقدنا قيمة النعم وأهمية الشكر، ولأصبحنا كالأطفال المدللين لا نقدر ما لدينا، ولو كانت عسراً دائماً لانهارت النفوس وضاعت الآمال وفقد الإنسان معنى الحياة، فهذا هو النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا دعاءً للمهموم:

"اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال".

فيا أيها القلب المثقل بالهموم، ويا أيتها النفس المضنية بالأحزان، ويا أيها الإنسان الذي يقرأ هذه الكلمات وفي قلبه غصة أو في عينيه دمعة، اعلم أن ما تمر به الآن ليس نهاية المطاف، بل مجرد محطة عابرة في رحلة طويلة مليئة بالمفاجآت الجميلة والمحطات السعيدة، وأن الله - الذي خلقك فسواك ونفخ فيك من روحه - لم ينس وعده، ولم يتخل عن أحبائه، ولن يترك عبده المؤمن فريسة للهم واليأس.

فهم اليوم ذكرى الغد، والمشكلة التي تبدو مستحيلة الحل الآن ستجد طريقها إلى الحل بطرق لا تخطر على بالك ومن جهات لم تفكر فيها، والباب المغلق في وجهك اليوم قد يكون سبباً في فتح أبواب أخرى أفضل منه، والألم الذي تشعر به الآن يصنع منك إنساناً أقوى وأحكم وأكثر رحمة بالآخرين، والدموع التي تذرفها اليوم تغسل روحك وتطهرها لتستقبل الفرحة القادم بقلب نظيف.

فلتعش في رحاب الثقة المطلقة بالله، فالله لا يخلف وعده، والفرج آتٍ لا محالة كما يأتي الفجر بعد الليل، وما عند الله خير وأبقى من كل ما نخاف فقدانه أو نتألم لغيابه.